

الإسلام ليس تُراثاً

الشيخ جعفر المهاجر

ها هو الأستاذ كريم مروة يعود على بيته عودة الابن الشاطر، بعد أن غادره منذ سنوات طويلة، أمضاها ضيفاً على الجيران الأبعدين. ثم ها هو يشيد بميزات (تراث) العائلة، وينصح بضرورة الاستفادة من حواضر البيت. والحقيقة أن هذا أمر اكتشفته جماهيرنا البسيطة دون عناء، وها هي تمضي في تعزيز اكتشافها يوماً بعد يوم، شاقة طريثها بصعوبة وسط مختلف أشكال القمع السلطوي والتهميل الإعلامي المدروس. والحقيقة أيضاً أن عودته كانت باهظة، كلفت قيام الثورة الإسلامية منذ عشر سنوات، و (البيرونيكا) منذ أربع أو خمس سنوات. (البعض يرى أن هناك علاقة سببية ما بين هذه وبين قيام الثورة الإسلامية على حدود الاتحاد السوفياتي) ومع ذلك فأهلاً وسهلاً، نقولها كالشيء إلا لأننا كنا في البيت ساعة أطل، وإلا فإن البيت بيته كما هو بيتنا على حد سواء، لا فضل لأحد على أحد في الانتماء إليه، والاستغلال بسقفه، والتمتع بدفته الحميم. ولكم كنا نتمنى أن لو كانت عودته من الباب الرئيسي، وليس من باب خلفي، فذلك الباب مفوح على مصراعيه ليس عليه حاجب ولا بواب. الفارق، أعني بين الدخول من الباب الرئيسي والتسلل من الآخر الخلفي، يكمن في نظرنا إلى الإسلام ودوره السياسي والاجتماعي. هل هو (ظاهرة تاريخية) و (تراث) ومجرد تعبير عن (مستوى التطور الراهن لبلداننا) نقبله ونتعامل معه مضطرين اضطراراً، لأنه يسهل علينا قيادة الجماهير إلى حيث نشاء أو يشاء لنا. ولكن يبقى هدفنا النهائي أن نتجاوزه إلى نقيضه؟ أم هو واقع حي. هو الذات والحافز والوجدان؟ وإذ ذاك نكون نحن الذين نحلل وننظر ونخطط مجرد أمناء. وظيفتنا أن نصغي إلى إيقاع الجماهير ثم نصوغ، فكراً وعملاً. مجاهدين ومفكرين وعاملين.

الإسلام ليس (تراثاً) ولا (ظاهرة تاريخية) ولا أي شيء من هذا القبيل. أنه واقع حي فاعل بل هو الواقع الحي الفاعل من أي النواحي أتيته سواء من ناحية ثقافة الجماهير، أم حوافرها السياسية أم تكوين ضميرها أم ولائها. هل نحن بحاجة إلى دليل على هذه الحقيقة الكبيرة؟ كيف يمكن أن تدخل الجبل في عين إنسان لا يريد أن يراه؟ هذا مستحيل ولكن المشكلة بالتأكيد لا علاقة لها

بالجبل. عجيب هذا الإلحاح على هذه الأوصاف عند كل الذين يتكلمون لغة ذات وجهين. وكأنه واهب عز عليه أن يمنح مضطراً، فهو يستعيد بيده اليسرى ما منحه قبل لحظات بيده اليمنى. أن معنى وصف الإسلام بالتراث أنه نتاج وضع تاريخي واجتماعي ينتمي إلى زمن مضى وانقضى. هذا كلام يشفي ولا يجدي. وهناك من يرمي ببصره إلى المستقبل من خلال الحاضر أولئك الذين يحسنون الإصغاء إلى وقع الجماهير المستضعفة المتململة القادمة على موجة الثورة الإسلامية الكبرى بعد أن وجدت فيها الانموذج والمثال الهادي. هل هذا تراث أم ظاهرة تاريخية أم مستوى التطور الراهن لبلداننا؟ كلا يا صديقي إنه المستقبل، إنه (نحن) بمقدار ما تعني هذه الكلمة الذات والذاتي وحتى أنت عندما تكون أنت نفسك انتفاء غير منقوص وليس مجرد (مصدر من مصادر معرفتي بتاريخ بلادتي ومعرفتي بواقعها، ومصدرها من مصادر جري ووعي المجتمع الذي أعيش فيه. وشكلاً من أشكال الوعي السائد في هذا المجتمع (...)) وأداة من أدوات البناء.

تلك هي مسألة المسائل التي ينبني على الموقف منها جملة ما بقي. من ذلك مجموعة المفاهيم الدائرة في كلام الأستاذ مروءة من مثل ثورة تحرير تقدمية (وضمناً: تقدميون) تطور تغيير. ثم أضدادها وهي معروفة أعتقد أنه لا مرأى في أن هذه الكلمات يمكن أن تشير إلى مضامين متخالفة بل ومتناقضة أحياناً لأن معانيها العلمية ليست فيها بل تتسرب إليها من الايديولوجيا وصورة المجتمع كما تخططها. وهي خصوصاً حين تكون قادمة من ايديولوجيا برانية تكون بمثابة ألغام فائقة الحساسية تنفجر بمجرد ملامستها محدثة خراباً هائلاً على مختلف المسويات. ولنا تجربة تاريخية مرة في هذا الميدان.

إذا قبلنا حمل الأمانة فإن الخطوة التالية المترتبة على الخطوة الأساسية تلك هي أن نقوم بمراجعة شاملة لتلك المفاهيم وذلك في سبيل الوصول إلى لغة موحدة منتزعة من هوية الجماهير وذاتيتها، ستتألف بسهولة مع الوجدان الشعبي وحتماً ستمنحها الجماهير ولاءها عفواً ودون عناء. هل نستطيع؟ أم سنستمر في حشو كلماتنا بمضامين ملتبسة ومثير للارتباك، لا علاقة لها على الإطلاق بالثقافة السائدة والتطلعات المشروعة للناس. فضلاً عن أنها تطرح مشروعات وبرامج وأهدافاً

مسقطه إسقاطاً من خارج كل التجارب التاريخية لشعبنا. بل إن بعضها على الأقل يتعارض كلياً مع مفاهيم الشريعة والمنظومة الأخلاقية وأسلوب العيش على سبيل المثال: أن كل الذين لا يعانون من حالة قلق ثقافية لا يفهمون من كلمة (تحرير) إلا أنها هجوم آخر على معافتهم الثقافية، وتحت شعاره (التقدم) دمرت مجتمعات إسلامية بأكملها.

ومفهوم (النهضة) في مقابل (الانحطاط) في التحقيق الشهير لعصر الانحطاط وعصر النهضة، لا وظيفة له إلا الإشادة بأيدي الاستعمار المباشر علينا، وإدانة كل ما قبله (راجع مقالنا: (عصر الانحطاط، عصر النهضة، خدعة أن لها أن تنتمي) في مجلة نور الإسلام 7 و 8) هذا كي لا نذكر (الثورة) والثورية و (الوطن) والوطنية والاستقلال.. الخ. الخ والأمثال كثيرة، كثيرة جداً.

حينما تبدأ أنت (الماركسي العربي) (بالمناسبة هذه العربي لا ضرورة لها) في قبول فكرة أن فتاة ترتدي احجاب الإسلامي. أو أن شاباً يحرص على أداء فروضه الدينية، يمكن، بل أنها حتماً أكثر تقدمية من امرئ لا عمل له إلا رمي أمته بالعجز والعقم وتقديم الدليل تلو الدليل، بالقول والعمل، أنه في وصف الآخر، حيث كل شيء أفضل — حينذاك نكون قد بدأنا في تجاوز حقبة طويلة من التلذذ بممارسة فن تجنب الذات (وهو فن يتقنه ويتمتع به مثقفونا المغتربون) واستنباط قيمنا الفكرية والسلوكية من عقدة الاتضاع.

إن أجل منحة قدمتها إلينا الثورة الإسلامية على هذا المستوى هي أنها جعلت مدج هاتين الكلمتين (أعني (ثورة) وإسلامية) في هذا النحو من التركيب، أمراً غير قابل للجدل، وبذلك وضعت كلاً من هاتين الكلمتين في موضعها الصحيح وقدمت لكل الذين يسكنهم القلق على المستقبل نموذجاً ليس عليهم إلا أن يحتذوه. وعليه فإن من وظائفنا الملحة (أيضاً إذا كنا قد قبلنا حمل الأمانة) أن نتابع على النهج نفسه، في اتجاه دمج اللغة السياسية ومفرداتها بالذات الثقافية. فنبداً في التحدث عن (نهضة، وتطور، وتقدم، وتغيير...) إلخ ذات مضامين مستخرجة من لونا الثقافي الخاص، ومن تجاربنا الحضارية، وعلى صلة حقيقية بأنماط الإبداع المحلي وترمي إلى تحقيق الأهداف المشروعة

لشعوبنا واعتقد أن هذا الانجاز سيكون بداية الطريق نحو تحقيق ذاتية العمل الفكري وذاتية

السياسة وذاتية الانتاج وذاتية التربية. وذلك ما ينبغي أن يكون الهدف في النهاية.

نحن مسرورون جداً إذ نسمع الأستاذ مروة يدعو إلى الدخول إلى (الجاهير من وسطها ووسطها

الحقيقي، لا من فوق ولا من تحت) يبقى الجاهير من وسطها ووسطها الحقيقي لا من فوق ولا من

تحت) يبقى القول أن هذا المطلب ليس بالأمر السهل بحيث يتم الوصول إليه بالنية الطيبة

فقط. الدخول إلى وسط الجاهير (وسطها الحقيقي) لا يتم عبر الاعتراف بهويتها الحقيقية اعترافاً

عملياً بالاندماج فيها، وليس اعترافاً لفظياً يمكن أن ينسحب في أية لحظة، وإلا عبر مخاطبتها باللغة

الوحيدة التي تفهمها، لغتها هي.

فلنبداً من هنا. والباقي تفاصيل، تفاصيل كثيرة جداً. يمكن العودة إلى الحديث عنها عندما تحب.